من أقاصيص الأولين

عرض : د. محمد أحمد خلف الله

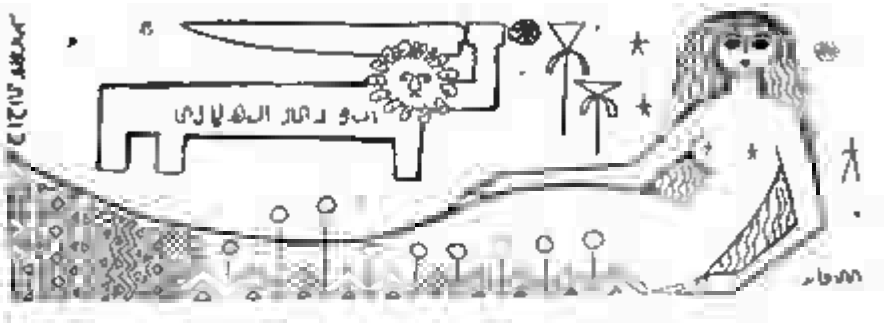

●● حدث أبو دلامة قال :

أتى بي المنصور وأنا سكران ، فظن ليخرجني في بعث خرب ، فأخرجني مع زوج من حاتم الطيئي لقتال الشراة ـ الخوارج ـ .

ولما التقى الجمعان قلت لزوج ! ـ أما والله لو أن لحتى فرسك ومعي سلاحك لأريت في عدوك اليوم الرأي ترتضيه .

فضحك وقال ! ـ والله العظيم لأدفعن ذلك اليك ، ولأخدمنك بالوفاء بشرطك ـ ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما الي ، ودعا بغيرهما فاستبدل به .

فلما حصل ذلك في يدي ورأيت مني حلاوة الطمع ، قلت له ! ـ أيها الأمير ، هذا مقام العائذ بك ، وقد قلت بيتين فاسمعهما .

قال ! ـ هات

فأنشدته !

إني امرؤ قد عرفت الحلم في الولى	لطعانٍ ونازلٍ وضرابِ
فهب السيوف رأيتها مشهورة	فركبتها ومضيت في الأعرابِ
هذا فقول لما يعن وما يرى	من واردات الموت في الأبوابِ

فقال ! ـ دع عنك هذا وسلم .

ومر رجل من الخوارج يدعو للمبارزة ، فقال ! ـ اخرج اليه يا أبا دلامة .

فقلت ! ـ أنشدك الله أيها الأمير في دمي .

قال ! ـ والله لتخرجن .

فقلت ! ـ أيها الأمير فإنه أول يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا ، وأنا والله جائع ما شممت شيئا خارجا من الجوع ، فمر لي بشيء آكله ثم أخرج .

فأمر لي برغيفين ودجاجة ، فأخذت ذلك ومررت عن الصف .

فلما رآني التاجر ـ الخارجي ـ اقبل نحوي عليه فرو وقد اصابه المطر فاسل ، واصابته الشمس فاعمل ـ نشفي ـ وعياه القفان ، فاسرع الي .

فقلت له : ـ على رسلك يا هذا ، كما انت .

فوقف .

فقلت : ـ اقتل من لا تقاتله ؟ .

قال : ـ لا .

فقلت : ـ اقتل رجلا على دينك ؟ .

قال : ـ لا .

فقلت : ـ افتستحل ذلك قبل ان تدعو من تقاتله الى دينك ؟ .

قال : ـ لا ، فاذهب حتى الى فسحة الله .

فقلت : ـ لا افعل او تسمع مني .

قال : ـ قل .

فقلت : ـ هل كانت بيننا قط عداوة او ترة ، او تعرض بقتال تحملك على ، او تظلم بين اهلي واهلك وترا ؟ .

قال : ـ لا والله .

فقلت : ـ ولا انا والله ، وما احمل لك الا جميل الراي ، وابي لاهواك وانتحل مذهبك وادين دينك وارتد السرور في ارادة لك .

قال : ـ يا هذا جزاك الله خيرا فانصرف .

فقلت : ـ اني معي زادا احب ان آكله معك ، واحب مواكلتك فتتوكد المودة بيننا ، وترى اهل المسكر هوانهم علينا .

قال : ـ فافعل .

فتقدمت اليه حتى اختلطت اعناق دوابنا وحططنا ارجلنا على معارفها والناس قد نظروا ضحكا ، فلما استوفينا ودعني .

ثم قلت له : ـ ان هذا الحامل ان اقمت على طلب البارزة تدعى اليك فتتعبك وتتعب . فان رايت الا تبرز اليوم فافعل .

قال : ـ قد فعلت .

ثم انصرف وانصرفت .

وقلت لروح : ـ اما انا فقد كفيتك فرسي فعل فعيري ان يكفيك فرسه كما كفيتك ، فاسك .

وخرج آخر يدعو الى البراز ، فقال لي : ـ اخرج .

فقلت : ـ

ابى اهـــود بروح ان يقـــدمني	الى البراز فتغزى بي بنو اســـد
ان البـراز الى الاقـران اعلمـــه	مما يفرق بين البـروح والجســـد
قد حالفتك المنايا اذ صحبت لهـا	واصبحت لجميع الخلق بالرصـــد
ان المهاب ـ ب المـــوت اورثـكم	وما ورثت الخبيث الموت عن احـــد
لو ان لي مهجـــة اخرى لجدت بهـا	لـــكنها خلقت فـردا فلم اجـــد

فضحك واعطاني .

●● جاء ابن ابي دلامة يوما الى ابيه وهو في محفل من جيرانه وعشيرته جالس ، فجلس بين يديه ، ثم اقبل على الجماعة فقال لهم : ـ

ان شيخي كما ترون ، قد كبرت سنه ، ورق جلده ، ودق عظمه ، وصار الى حالة حاجة شديدة ، فلا ازال اشير عليه بالشيء يعمد رمقه ويبقى قوته ، فيخالفني فيه . واما اسالكم ان تسالوه قضاء حاجة لي اذكرها بحضرتكم ، فيها صلاح لجسمه ، وبقاء لحياته ، فانعموا بمسالته .

فقالوا : نفعل جعلنا وكرامة .

ثم اقبلوا على ابي دلامة يسالونه ويتاولونه بالعتاب حتى رضي وهو ساكت .

فقال ... ـ قولوا للحسب فليفعل ما يريد ، فستعلمون انه لم يات الا بخير .

فقالوا له ... ـ قل .

فقال ... ـ ان ابي انما يقتله كثرة الجماع ، فحاولوا عليه حتى اخصيه ، فان يقتصد من ذلك فهو ذاك ، فيكون اصح لجسمه واطول لعمره .

فعجبوا من ذلك وظنوا انه انما اراد ان يعبث بابيه ويخدعه حتى يشيع ذلك عنه فيرتفع له بذلك ذكر ، فضحكوا منه .

ثم قالوا لابي دلامة ... ـ قد سمعت فاعجب .

قال ... ـ قد سمعتم انتم وعرفتم انه لي يأتي بخير .

قالوا ... ـ فما عندك في هذا ؟ .

قال ... ـ قد حفظت انه حكما بيني وبينه فقوموا بنا اليها .

فقاموا باجمعهم فدخلوا اليها ، وقص ابو دلامة القصة عليها ، وقال لها ... ـ قد حكمتك .

فاقبلت على الجماعة فقالت ... ـ ان ابني ـ اصلحه الله ـ قد نضج اناه وبرا ولم يأل جهدا ، وما انا الى نقاء آبه باحوج مني الى نقائه ، وهذا امر لم تقع به تجربة منا ، ولا جرت بمثله عادة لنا ، وما اشك في معرفته بذلك . فليدا بنفسه ، فاذا عوفي ورأينا ذلك قد اثر فيه اثرا محمودا استعملته انوه .

فضحك ابوه وجعل يضحك منه ، وخجل ابنه ، وانصرف القوم يضحكون ويعجبون من خبثهم جميعا واخلاقهم في ذلك المذهب .

●● اقبل حرم بن حرم ساقه السنة والجدب بلاده الى بلاد بني قشير ، وكان بينهم وبين بني قشير حرب عظيمة ، فلم يعدوا بنا من رعي قشير بانفسهم لما قد سأفهم من الجدب والمجاعة وشدة الاموال وما اشرفوا عليه من الهلكة . ووقع الربيع في بلاد بني قشير ، فخصبت قشير لهم الحرب .

فقالت حرم : ـ انما جئنا مستجيرين غير محاربين .

قالوا : ـ فعلام ؟

قالوا ... ـ من السنة والجدب والهلكة التي لا باقية لها .

فاجارتهم قشير وسالمتهم وارضتهم فرفاض بلادها .

وكان في حرم فتى يقال له عبيساد ، وكان فرلا حسن الوجه ، تام القامة ، آخذا بقلوب النساء . والفزل في حرم جائز حسن ، وهو في قشير مكروه .

فلما نازلت حرم قشيرا وجاورتها اصبح عباد الحرمي فعدا الى القشيريات يطلب منهن الغزل والعبا والحديث ، واستراق الخلسات عند غيبة الرجال واشتمامهم بالسقي والرعية وما اشبه ذلك ، فدفعته عنهن واسمعته ما يكره . وراجب رجالهن عليهن وعن عفيفات .

فقال عجائز منهن ... ـ والله ما ندري ارغبتم حرما الرعي ام ارغبتموهم مساكم ؟ .

فاشتد ذلك عليهم فقالوا ... ـ وما ادراكما ؟ .

قلي ... ـ رجل منا اليوم قل محجرا لنا ما يطلع منا رأس واحدة ، يدور بين بيوتنا .

فقال بعضهم ... ـ بيتوا حرما فاستأصلوها .

وقال بعضهم ... ـ قبح ... قوم قد سقيتموهم مساءكم ، وارعيتموهم مراعيكم ، وخلطتموهم بانفسكم ، وآخرتموهم عن القحط والسنة ، تصابون عليهم هذا الاقتيات ، لا تفعلوا . ولكن تصبحوا وتقدموا الى هؤلاء القوم في هذا الرجل ، فانه سفيه من سفهائهم فليأخذوا على يديه ... فان بطشوا فانهوا لهم احداثكم ، وان يمتنعوا ويقروا ما كان منه نجل لكم البسط عليهم وتخرجوا من ذمتهم ، فاجمعوا على ذلك .

فلما اصبحوا غدا نفر منهم على حرم فقالوا ... ـ ما هذه البدعة التي قد حاورتمونا بها ؟ ان كانت هذه البدعة سجية لكم فليس لكم عندنا ارعاء ولا اسقاء ، فيرووا عنا انفسكم وانووا بحرب ، وان كان افتتانا فصيروا على من فعله .

وانهم لم يعدوا ان قالوا لجرم ذلك .

فقال رجال من جرم وقالوا : ـ ما هذا الذي بالكم ؟ .

قالوا : ـ رجل منكم امس قال بحر اذياله بين اميانينا ما ندري علام كان أمره ؟

فتهيبت جرم من جلسة القشيريين وعرفتها ، وقالوا : ـ انكم لتحسنون من نسائكم بيلاء ، الا فانهضوا الى بيوتنا رجلا ورجلا .

فقالوا : ـ والله ما نحس من نسائنا بيلاء ، وما نعرف منهن الا العفة والكرم ، ولكن فيكم الذي فلتم .

قالوا : ـ فانا سنمت رجلا الى بيوتكم يا بني قشير اذا غدت الرجال واخلف النساء ، وتبعثون رجلا الى البيوت ، وتتحالف انه لا يقدم رجل منا الى زوجة ولا اخت ولا بنت ولا علمها منه ما دار بين القوم ، فيقابل كلاهما في بيوت اصحابه حتى يردا طينا منتنا الماء ويظن لهما البيوت ، ولا تبرز امراة ولا تصادق منهما واحدا فيقبل منهما صرف ولا عدل الا بموثق يأخذه عليها وعلامة تكون معه منها .

قالوا : ـ اللهم نعم .

فظلوا يومهم ذلك وباتوا ليلتهم ، حتى اذا كان من الغد غدوا الى الماء وتحالفوا انه لا يعود الى البيوت منهم أحد دون الليل .

فغدا ميعاد الجرمي الى القشيريات . وغدا يزيد بن الطثرية القشيري الى الجرميات ـ وقد كان من احسن من على وجها واطيبه حديثا .

فكل يزعم فتنهن بأكرم مظل لا يصير الى واحدة منهن الا انتشت به وثابته الى المودة والاخاء وفاض منها بحتها وسألته الا يدخل من بيوت جرم الا بيتها ، فيأتوز لها : ـ واي شيء لخاطبي وقد اخذت مني المواثيق المعهود ليس لاحد في فلي نصيب غيرك ، حتى صليت العصر . فانصرف يزيد بأشماط واسلور وبراقع . وانصرف مكحولا مدهونا شيمان ربان مرجل اللمة .

وظل سواد الجرمي يدور بين بيوت القشيريات مرحوما مقصى لا يتقرب الى بيت الا استقبلته الولائد بالصدل فيمالك لهن وظن انه ارتشاد منهن له ، حتى اخذه غرب كثير بالصدل ورأى البأس منهن وجهده العطش ، فانصرف حتى جاء الى سمرة قريبا الى نصف النهار ، فتوسد يده ونام تحتها نومة حتى أفرجت عنه الظهيرة وفاءت الاظلال وسكن بعض ما به من الم الغرب وبرد عطشه قليلا ، ثم قرب الى الماء حتى ورد على القوم قبل يزيد ، فوجد امة الغود فيما في بعض الظن ، فاخذ برقبتها فقال : ـ هذا برقع واحدة من نسائكم ، فطرحه بين يدي القوم ، وجاءت الامة تعدو فتعلقت برقبتها فرد عليها وخجل ميادا خجلا شديدا .

وجاء يزيد ممسيا وقد كاد القوم ان يتفرقوا ، فشر كفيه بين ايديهم ملآن براقع واشماط واسلور ، وقد خلف القوم الا يعرف رجل شيئا الا رفعة .

فلما نثر ما معه اسودت وجوه جرم وامسكوا بأيديهم امساكه .

فقالت قشير : ـ انتم تعرفون ما كان بيننا امس من العهود والمواثيق وتحرج الانواق والاهل ، فمن شاء ان ينصرف الى حرام فليمسك يده .

فمسك كل رجل يده الى ما عرف فأخذه ، وتفرقوا في حرب .

وقالوا : ـ هذه مكيدة يا قشير .

فقال في ذلك يزيد بن الطثرية :

فان شئت يا ميـــاد زدنا وزدتم ... ولم نخس الحيـــا على من يصيبها
ايلهب ميـــاد بالسباب لسوئي ... وســـوءة ميـــاد صحيح قلوبهـــا